غير منظور ولا مقصود او مثل اثر القوى الطبيعية العمياء . فان هذه القوى غير المدركة تفضي احياناً الى نتائج مروجة للتقدم واحياناً الى نتائج مضادة لهُ ولكنها لا تتوخى انتاج تلك النتائج . فالحرب لذلك داخلة في باب تصرُّف الطبيعة لا في باب تصرُّف العقل . ومن خصائص الباب الاول الاسراف . فان الطبيعة مشهورة باسرافها والتقدم الذي تمهدهُ يقضي كثير النفقة غير اكيد . ولما كانت الحرب ظاهرة طبيعية في نظر الاجتماع فلا غرابة اذا ظهر عليها الاسراف . وربما كانت اعظم نموذج على الاسراف الاجتماعي

وسواء صدر الاسراف من الفرد او من الجماعة فهو عنوان سفه الرأي وقلة الادراك . فان وظيفة الادراك استخدام الاقتصاد في الوقت والوسيلة والعمل ليلوغ غاية معينة . فاذا وُجِدَ الادراك الاجتماعي لترويج التقدم الاجتماعي لم يعمد الى الحرب لما فيها من الاسراف وعدم الثقة بالنتائج . ولا بدَّ ان يفضي التقدم الاجتماعي العام الى منع الحرب اذ اطراد التقدم ودوام الحرب نقيضان لا يجتمعان

الجندي الفرنسوي

نشرت احدى صحف لندن اليومية الكبرى في صدرها مقالة لكاتب كبير معروف ترجمها عن الفرنسوية عنوانها « صنفان من الشجاعة » قدمها بمقدمة صغيرة . والاصل الفرنسوي من قلم المسيو جورج بيردون نشر في مجلة « مركور دي فرانس » والمقدمة من قلم المستر وورد برَيس المترجم نشرها في صدر الدايلي مايل . وقد رأينا ان نترجمها الى العربية لما تضمنتاهُ من الوصف البليغ والمعاني البديعة قال الكاتب

« مما يقضي بالعجب في هذه الحرب العظمى التي اقتضت منا مجهوداً لم تقتضهِ حرب قبلها انهُ لم يحاول احد درس سلوك الجندي في ساحة القتال وشرح ما يجول في صدرهِ من المخاوف وما يختلج فيهِ من الآمال

« نرى صحبنا يغادروننا الى ميادين القتال — رجال كرهوا التعب واحبوا الراحة واولعوا باهلهم وشائقهم الحياة كما نشوقنا . واول ما نسمع عنهم بعد غيابهم عنا انهم يحتملون النزع وحشرجة الصدر بلا شكاية ويجودون بارواحهم والنكتة على شفاههم — ذلك كلهُ ليتقدموا ليد باع او باعين من الارض

« فكيف جاءتهم هذه الشجاعة . هل هي بالية او زائلة . وهل هم فيها سواء او هي على درجات فيهم

« احسن وصف رأيتهُ لضروب الرجال الذين تتألف الجيوش منهم مقالة نشرتها مجلة « مركوردي فرانس » بقلم جندي في خط النار وهو المسيو جورج بيردون . بدأها بالاحتجاج على اختلاق انموذج للجندي الفرنسوي اختلقتهُ مخيلة الامة الفرنسوية منذ شبت نار الحرب واخترعت لهُ اسماً جديداً في اللغة الفرنسوية وهو « بوالو » ومعناهُ الاشعر . اما صفاتهُ فهي البسالة والحنان وحب الجمون والسذاجة الجذابة سذاجة الاولاد . والذي يزيد هذه الصفات وضوحاً فيهِ منظرهُ المهيب ووجههُ الملتحي الذي لوحتهُ نار الحرب من طول اصطلائها وأكسبتهُ لون النحاس وصلابة البرونز

« وقد صدق المسيو بيردون حيث قال انهُ يستحيل ابداع انموذج واحد ينطبق على كل واحد من الجنود الفرنسوية لان الجندي الفرنسوي الحديث هو الامة كلها تحت السلاح . واختلاف الصفات الذي يشاهد في البلاد ايام السلم يشاهد في ساحة القتال ايام الحرب »

المقالة

« اول فارق يمكن وضعهُ بين جنود امة هو انهم على قسمين قسم الذين يحبون الحرب وقسم الذين يتناحون اليها جهرة . ففي القسم الاول ضباط الجيش النظامي الذين اولعوا بحرفتهم . وكثير من صغار الجنود الذين يخدمون خدمتهم العسكرية ويفضلون مشاق المعارك على راحة الكنات . وبعض المتطوعين الذين يرون الحرب لهواً ولعباً . واهل الغيرة الوطنية الذين عقدوا العزم على تفدية وطنهم بجميع ما تملك ايمانهم

« وفي القسم الثاني آباء العائلات الذين شغل قلوبهم خوف المكاره التي تحدق بنسائهم واولادهم اذا قتلوا هم في الحرب . والجبناء الذي يجفلون من صفير الرصاص ويدركهم الشلل او الذين يغمى عليهم اذا انفجرت قنبلة على كثب منهم . والمترفون الذين لا يطيقون فقدان ما يتمتعون بهِ من الرفاهة ويستوحشون لفجاءة الشكولاتا الذي يؤتى بهِ الى اسرتهم كل صباح . ومشايخ الضباط المكفنين بشرائطهم العسكرية وبالسنين الطوال التي قضوها في حاميات صغيرة نائية فما يعرف أأموات هم ام احياء . والفلاح الذي لا يمتد فكرهُ الى ما وراء قريتهِ والذي لا يفقه معنى لهذه المجازفة المهلكة التي استيق اليها . ونفر من الذين لا يعرفون من الدنيا الاَّ ما يرى في الحانات والكازينات والخانات . وابن بنت الحان الذي تولاَّهُ

الفنوط لفقد خيلائه . والمتهتك الذي لا قبل له باحتمال قيود النظام الذي قيد به

« وبين الملايين الذين اصطلوا بنار الحرب رجال يشعرون بالخوف ورجال لا يشعرون به . واعظم تمييز بين فريق وفريق هو بين الشجعان الذين يفعلون معها طلب منهم ولا يبالون والجبناء الذين لا يتقدمون الى الامام الاَّ مستندين الى رفاقهم والذين تجب مراقبتهم على الدوام . ولا يغرب عن البال ان الخوف ورباطة الجأش وهما نقيضان ليسا كافيين ليكون المرء باحدهما جباناً وبالثاني شجاعاً . فان العصبي الذي يرتجف لصفير الرصاصة يستطيع ان يشد ركبتيه المصطكتين بالتفكير في الشرف والواجب . اما الذي لا يحرّكه وقع القنابل حوله فهو على التالب فاتر الهمة فاقد العزيمة لا يستفزه شيء فاذا رأى من ضابطه اجماماً او سمع جباناً من رفاقه يقترح الفرار اطلق ساقيه للريح لا يقف ولا يلوي على احد . وبعد هذين يأتي الرعديد الذي يقول في نفسه « اني اكره ان أُحاكم في مجلس عسكري ولكني اذا استطعت التخلف عن رفاقي في حفرة او اخدود يوم يؤمرون بالهجوم لا اعدم طريقاً انضم به الى فصيلتي فيما بعد »

« ان الشجاعة التامة التي تتناول الصبر على المكاره قد تكون فطرية وقد تجلب بالتربية . ويجب ان تكون شيمة كل ضابط وقائد . وقد بلغ فتك السلاح الحديث حداً لا يستطيع كل احد عنده ان يزهي هذه الفضيلة فيه . وليس فيمن شهد المعارك من يلوم رجلاً فقد فياد نفسه عند رؤية الجروح الحادثة من القنابل المتفجرة . ولا غرابة اذا تردد اب العائلة في الهجوم بالحراب على فصيلة من الاعداء سلاحها البنادق المتعددة الطلقات

« والقائد الحقيقي يعلم هذه الفروق كلها و يعلم ان الرجال الذين يقودهم ليسوا كلهم ابطالاً ولكن امامه عملاً لا بد منه فيسعى جهده في حملهم على بذل كل ما في طاقتهم . وعليه ان يفتش عن الوسائل التي تبلغه النتيجة المرومة وهي ان يحارب جيشه كما لو كان مؤلفاً من خيرة جنود الدنيا . ولا جدال في انه متى كان الرجال شجعاناً لا يضطر قائدهم ان يسير امامهم بل يستطيع ان يسير على محاذاتهم او ان يتأخر عنهم قليلاً . ومتى كانوا خليطاً بينهم الشجاع والجبان حذوا حذو قوادهم في الاقدام او الاحجام . ومتى كانوا كلهم من ضعاف القلوب خائري العزائم فان سماعهم بعض الفاظ من قوادهم ورؤيتهم المدسات محشوة ومشهورة في ايديهم يقنعانهم بان لا سبيل الى التردد او التريث

« وكلما رأيت من الحروب وشهدت من المعارك زدت وثوقاً بالقواد واعتماداً عليهم . ولا

تحسبن من ذلك اني احتقر العامة وامتهن الجنود . فان جنودنا كلهم تقريباً شجعان ولكنهم اولاد لا يصلحون لشيء بلا قواد . انظر ماذا يجري اذا فقدوا قوادهم . فانهُ اذا لم يقم منهم جندي عزوم و يجعل نفسهُ قائداً لهم وسيداً يتفرقون ايدي سبا و يتركون الميدان قائلين « ان قائدنا قتل وضباطنا جرحوا فلم ندر ما نفعل فتركنا ساحة القتال » . ولطالما سمعت هذه العبارة يرددها فئات من الجند وهم غير مبالين بمقتي اعمالهم على غيرهم . فقد حسبوا انهم فقدوا كل شيء بفقد قوادهم ولم يحسبوا حساباً لامر آخر

« انهم قوم من الغرابة بمكان . اجمع جموعهم وبث روح الاخوة فيهم وقدهم الى حد تريخهم واهانتهم تجدهم ساكنين لا يحفظهم زجر ولا تعنيف . ثم أعطهم قائداً آخر يندفعوا الى المزدحم برباطة جأش و يمشوا الى الموت بين القنابل المتفجرة والرصاص المنهمر . ذلك ان جاءهم قائد يقودهم وهذا كل ما يرضيهم و يقنعهم » انتهى

رأيت مما تقدم ان الشجاعة صنفان شجاعة مطلقة وشجاعة مقيدة بقيود وضوابط . وان الذين يشهدون الحروب لا يخرجون في واقع الامر عن صنفين فاما صف الاسد واما صف النعامة . وان الشجاعة المقيدة ليست بشجاعة

وما دام الناس ناساً وما دام لذوي العيال منهم اكباد في جنوبهم واكباد تمشي على الارض وما دامت النفس مقدمة على سائر الاشياء فلا يرى كثيرون منهم جناحاً عليهم في الانتهاء الى الذين يحجمون عن الوغى وفي انشاد قول بن قال :

وقالوا تقدم قلتُ لستُ بفاعلٍ أخاف على نفّاري ان تحطما
فلو كان لي رأسانِ عشت بواحد ولكنهُ رأس اذا راح افقما
ولو كان متاعاً لدى السوق مثلهُ لعلت ولم أحفل بان القدما
فأوتم اولاداً وأرمل نسوةً فكيف على هذا ترون التقدما

ولكن هؤلاء يقاون بارتقاء التضامن بين الناس حتى يشعر كل احد انهُ جزء من الامة كلها وان عزة امتهِ ومنعتها توقفان عليهِ كما تتوقفان على غيرهِ . فاذا خيف على الامة ان تذل لغيرها فالموت في سبيل عزها أولى من حياة المذلة

مدام دي ستايل

امام الصفحة ٤٣٣

المقتطف نوفمبر ١٩١٥